

البعد الحضاري والسياسي في صلح الحديبية

أ.د: عليوان اسعيد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة

مقدمة:

تُعَدُّ الحُدَيْبِيَّةُ مرحلةً فاصلةً في التَّارِيخِ الإسلاميِّ، في تاريخ الدَّعوة الإسلامية، وفي تكوين الدَّولة الإسلامية، فقد كانت نصراً مُبيناً على الشُّرك وعلى السَّيْف، نقلت المسلمين نقلةً نوعيَّةً، من مرحلة الخوف والفقر إلى مرحلة الأمن التَّام والغنى، وتمكَّنوا من الدَّعوة في حريَّة تامَّة فتضاعف عدد المسلمين أضعافاً مضاعفة في فترة قياسيَّة، وصار لهم دولةٌ قويَّة يُحسب لها حسابُها، وخرجت الدَّعوة الإسلامية من النُّطاق العربيِّ إلى النُّطاق الدَّوليِّ، فكان الانتشار، ومع الانتشار التَّحضُّر، وكان التَّحضُّر نابعا من الفضيلة وخادماً لها، وتغيَّرت قيادةُ البشريَّة الرُّوحيَّة من بيت المقدس إلى مكَّة المكرَّمة. كلُّ هذا وغيره تمخَّض عن صلح الحديبية فسمَّاهما الله ﷻ ﴿فَتَحَامِينَا﴾.

ما سبق وغيره يدفعنا إلى التَّساؤل عن هذه المحطة في حياة الرُّسول ﷺ، ما سببها؟ وما جرى فيها؟ وكيف تطوَّرت الأحداث؟ وماذا تمخَّض عنها؟

واجتهدنا في أن يكون جوابُنا عن هذه التَّساؤلات بتقسيم هذا البحث إلى قسمين:

- أولاً: مُسلسل الأحداث: وبيَّنا فيه ما وقع ابتداءً من سبب الخُروج إلى الحديبية إلى موقف القرآن الكريم ممَّا جرى.

- ثانياً: تحليل نتائج الحديبية: ومن خلال هذا التَّحليل نكتشف البُعد الحضاريَّ والسيَّاسيَّ، وقد ذيلنا هذه الدِّراسة بخاتمة.

أولاً: مسلسل الأحداث:

سبب الخروج إلى الحديبية⁽¹⁾:

رأى رسول الله ﷺ في المنام أنه دخل هو وأصحابه ﷺ المسجد الحرام آمنين مُحَلِّقِينَ رؤوسهم ومقصرين⁽²⁾ وطافوا بالبيت العتيق، ولكن من غير تحديد للزمان وتعيين للشهر والعام⁽³⁾، وهذا يعني بوضوح أن هذه الغزوة تدبير إلهي محض، ذلك أنه كما هو معلوم فإن رؤى الأنبياء وحي.

فأخبر النبي ﷺ الصحابة بالمدينة، فاعتقد بعض الصحابة أن هذه الرؤيا ستتحقق في هذه السنة⁽⁴⁾، أي في شهر ذي القعدة في السنة 6هـ⁽⁵⁾، فاستبشروا وفرحوا فرحاً شديداً، الأنصار عامة، والمهاجرون خاصة الذين - إضافة إلى كونها مقر البيت العتيق بيت الله ﷻ الذي يتجهون إليه في صلواتهم - فهي مسقط رؤوسهم، فيها ولدوا ونشأوا وأسلموا وعُدُّوا، وصودرت أموالهم، وتركوا بها أهاليهم⁽⁶⁾.

أمر الخروج إلى مكة المكرمة:

استنصر الرسول ﷺ أصحابه من سُكَّان المدينة ومن حولها من الأعراب للخروج إلى مكة مُعْتَمِرِينَ لا مقاتلين، فغسل ثيابه وركب ناقته القصواء، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، أو ثُمَيْلَةَ اللَّيْثِي - على اختلاف في الروايات - ، غادر المدينة المنورة يوم الاثنين غرة ذي القعدة سنة 6هـ ومعه زوجته أم سلمة في ألف وأربعمائة⁽⁷⁾ صحابي، بحيث لم يتخلف عنه أحد من سُكَّان المدينة إلا نادراً عكس الأعراب الذين تخلف كثير منهم. خرجوا مُعْتَمِرِينَ وساقوا معهم الهدى مُقَلِّداً، وأحرموا بالعمرة وليس معهم من سلاح سوى السيوف في القرب⁽⁸⁾، وهي ما يحمله المسافر عادة في سفره، ليعلم الناس أنه ﷺ خرج زائراً إلى البيت مُعْظِماً له⁽⁹⁾ لا مقاتلاً، وأرسل ﷺ وهو بذى الحليفة عيناً له وهو بشر بن سفيان الخزاعي ليأتيه بخبر أهل مكة، فلما وصل النبي ﷺ إلى غدير الأشطاط - قرب عسفان - أتاه بشر بن سفيان، وأخبره أن قريشاً جمعت الأحابيش، وتجهزت لمقاتلة النبي ﷺ وصدّه عن البيت، فاستشار النبي ﷺ

أصحابه في ذلك، فأشار عليه أبو بكر رضي الله عنه بمواصلة المسير إلى البيت مُبرِّراً بأننا خرجنا لهذا البيت لا لقتل أو حرب، ولكن من صدنا عنه قاتلناه، فقال لهم النبي ﷺ امضوا على اسم الله (10).

• محاولة قريش صد المسلمين عن الكعبة:

لما سمعت قريش بخروج النبي ﷺ عقدت مجلساً استشارياً قرَّرت فيه منع المسلمين من دخول البيت، فنزلت بذي طوى، وجعلت 200 فارس تحت قيادة خالد بن الوليد تُرابط بكراع الغميم في الطريق الرئيس الموصل إلى مكة لصد المسلمين، فرأى المسلمين في أداء صلاة الظهر جماعة، فقرر غدرهم في صلاة العصر، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف فضاغت الفرصة من خالد (11)، هذا الحكم يبين لنا رعاية الله التامة للمسلمين في هذه الغزوة، وأن كل حركة من حركاتهم، وسكنة من سكناتهم إنما كانت بقدر معلوم من الله ﷻ.

• الرسول ﷺ يعمل قدر المستطاع على تجنب المواجهة ويأمر بتبديل الطريق:

أمر رسول الله ﷺ بتبديل الطريق تجنباً للمواجهة فسار بهم بدلالة رجل من "أسلم" طريقاً وعراً حتى خرج إلى مستو سهل يملك مكة من أسفلها، فأسقط الأمر في يد خالد ورجع بفرسانه إلى قريش، وأخبرهم بما وقع.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ثنية المزار (مهبط الحديبية)، بركت ناقته القصواء، فزجروها فلم تقم (12) فقالوا: «خلأت القصواء - حرنت وبركت بدون سبب..»، فقال ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها» (13)، وفي رواية ابن هشام: «لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» (14)، ثم زجرها فوثبت، فنزل بالمسلمين بأقصى الحديبية في مكان قليل الماء فأخرج سهماً من كنانته، وأعطاه أحد أصحابه فنزل به في قلب فغرزه في جوفه، فارتفع ماؤه حتى ارتوى منه الناس جميعاً (15).

١. توسُّط بُدَيْل بين الرسول ﷺ وقريش والشُّروع في المفاوضات بواسطة الرُّسل:

بعد نزول النَّبِيِّ ﷺ بأقصى الحديبية أتاه بُدَيْل بن ورقاء الخزاعيُّ في نفر من خُزاعة، وكانت خُزاعة عِيبة⁽¹⁶⁾ نصح رسول الله ﷺ مسلمها ومشرَكها لا يُخفون عنه شيئاً، فأخبره بقرار قريش بقتاله وصدّه عن البيت العتيق، فأخبرهم النبي ﷺ «أنّه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً إلى البيت، ومُعظماً لحرمة⁽¹⁷⁾»، وأنَّ قُريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاءوا ماددتهم ويحلُّوا بيني وبين النَّاس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه النَّاس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا، وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتّى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره⁽¹⁸⁾، فرجع إلى قريش وأخبرهم بذلك فقالت قريش بعد أن اتهمت بُدَيْلاً وجماعته وجبهتُهم (خاطبتهم بما يكرهون): «فوالله لا يدخلها علينا عُنوة أبداً، ولا تُحدث بذلك عنا العرب⁽¹⁹⁾»، وأرسلت قريش رسولاً آخر هو مِكرَز بن حفص، فلما رآه النَّبِيُّ ﷺ قال: «هذا رجل غادر» ولكنه كلّمه بما كلّم به بُدَيْلاً، فأخبر قُريشاً بذلك، فأرسلت رسولاً آخر، هو الحُلَيْس بن علقمة الكناني سيّد الأحابيش فلما رآه النَّبِيُّ ﷺ قال: «إنَّ هذا من قوم يتألّهون (يتعبّدون ويعظّمون الإله) فابعثوا الهدى في وجهه حتّى يراه، فلما رآه رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لِمَا رأى، وطلب منهم أن لا يصدّوا النَّبِيَّ ﷺ، فقالت له قريش: أنت أعرابي لا علَم لك بذلك، فقال عروة بن مسعود النَّقفِي: إنَّ هذا قد عرض عليكم خطّة رُشد فاقبلوها ودعوني آته.

فأتاه فأخبره النَّبِيُّ ﷺ بما قاله لبُدَيْل قبله، وكان عروة يَرْمُقُ أصحاب رسول الله ﷺ وعلاقتهم به، فذهل ممّا رأى من حُبِّهم وتعظيمهم له⁽²⁰⁾، فلا يتوضّأ وضوءاً إلاّ كادوا يقتتلون عليه يتمسّحون به، وإذا تكلموا خَفَضُوا أصواتهم عنده ولا يُحدّثون النَّظر إليه⁽²¹⁾، فلما رجع إلى قريش قال لهم: «يا معشر قريش إنِّي قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنَّجاشي في ملكه، وإنِّي والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمّد في أصحابه، ولقد رأيتُ قومًا لا يسلمونه لشيء أبداً، فرُّوا رأيكم⁽²²⁾»، وهنا قبل أن تُشير إلى إغارة شباب قُريش على مُعسكر المسلمين نذكر أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقوم بتحليل نفسيّ لرسول

قريش، ويعمل على إقناعهم ليعودوا حاملين راية السلام النبوية، ومن ذلك سؤق الهدي أمام الحليس بن علقمة الكناني.

• إغارة قريش على معسكر المسلمين:

لما رأى بعض القرشيين الراغبين في الحرب تفكير قريش في الصلح قرروا إشعال نار الحرب، فأرسلوا نحو 40 أو 50 رجلاً ليغيروا على المسلمين فهبطوا من جبل التثعيم، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، ولكن محمد بن مسلمة قائد حرس المسلمين اعتقلهم جميعاً، ولكن النبي ﷺ أطلق سراحهم رغبة في الصلح، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ (23).

• رُسُلُ الرسول ﷺ إلى قريش:

بعد رُسُل قريش أرسل رسول الله ﷺ رُسُلَهُ إليها، وهم:

1. خراش بن أمية الخزاعي: أرسله إلى قريش مكة، ولكنهم عقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش، فرجع إلى رسول الله ﷺ (24).

2. عثمان بن عفان: أرسله النبي ﷺ إلى أبي سفيان وأشراف قريش، ليبلغهم أنه جاء لزيارة البيت ومُعظماً لحُرْمَتِهِ، ولم يأت لقتال فبلغ الرسالة أبا سفيان وأشراف قريش، ثم قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، ولكن قريشا احتبسته عندها (25)، ولعلهم أرادوا التشاور فيما بينهم ليردُّوا على عثمان، غير أن الاحتباس طال فشاع بين المسلمين نبأ قتله، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم» (26)، ودعا إلى البيعة.

• بيعة الرضوان:

لما بلغ النبي ﷺ مقتل سيدنا عثمان دعا أصحابه إلى البيعة فبايعه الصحابة تحت شجرة هناك سُميت بشجرة الرضوان على أن لا يفروا، وكان عمرُ أخذاً بيده ﷺ، ومقل بن يسار أخذاً بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ،

والصَّحابة يُبايعون، وقد بيَّن القرآن الكريم صدقهم في هذه البيعة، حيث نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ (28).

هذا ما يتعلق بالمسلمين، أمَّا المشركون فبعد أسْرُ فُرسانهم أخذوا يُناوشون المسلمين فأُسِرَ منهم 12 رجلاً آخر وقتل مُسلمٌ. وعند ذلك خافت قريش (29) ولا سيما بعدما علموا بأمر البيعة، فأشار كبارُها بالصُّلح مع عدم دُخُول المسلمين مَكَّة المكرمة هذه السَّنة (30)، ولكن يدخُلونها في السَّنة القادمة، وأرسلت سهيل بن عمرو مُفاوضاً (31).

إبرام الصُّلح وبنوذه:

أدركت قريش حُطورة الموقف بعدما سبق، فأُسرعوا بإرسال سهيل بن عمرو لعقد الصُّلح، وأكَّدت له رفضها دُخوله مَكَّة هذه السَّنة حتَّى لا تتحدَّث العرب أنَّه دخلها عليهم عُنة. رغم أنَّ قريشا لم تكن مُتعوِّدة على منع زُوار البيت أيَّاً كانوا. فلما رآه النَّبيُّ ﷺ قال لأصحابه: «قد سهل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل»، فجاء سهيلٌ فتكلَّم طويلاً ثم اتَّفقا على قواعد الصُّلح (32)، وهي:

1. وضع الحرب بين الطَّرفين 10 سنوات يأمن فيها النَّاس، ويكفُّ بعضهم عن بعض، وأنَّه لا سرقة ولا خيانة.

2. من أحبَّ أن يدخل في عقد محمَّدٍ وعهده دخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، والقبيلة التي تدخل في عقد فريق تُصبح جزءاً منه، فأئِيَّ عُدوان عليها يُعدُّ عُدواناً على الفريق الذي انضمت إليه، فدخلت خُزاعة في عقد محمَّد ﷺ وعهده، ودخل بنو بكر في عقد قريش وعهدها.

3. أن يرجع الرُّسول ﷺ من عامه فلا يدخل مَكَّة، ويرجع في العام المقبل يُقيم بها مع المسلمين ثلاثاً ليس معهم سوى السيُوف في القُرب، ولا تتعرَّض لهم قريشُ بأيِّ أذى.

4. من أتى محمدًا من قُريشٍ بغير إذنٍ وليِّه رَدَّه عليهم، ومن جاء قُريشًا ممن مع مُحَمَّدٍ لم يردُّوه عليه (33).

هذه هي بنود الاتفاقية وقد كُتبت، كتبها عليُّ بن أبي طالب وأشهد رسولُ الله ﷺ على الصُّلح رجلاً من المسلمين ورجلاً من المشركين، فَمِنَ المسلمين أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وعليُّ بن أبي طالب (جمع بين كتابة المعاهدة والشهادة عليها)، ومن المشركين مِكرَز بن حفص (34) وحُويطباً (35).

• موقف الصَّحابة من بُنود المعاهدة ومن ديباجتها:

أغلبُ الصَّحابة رأوا أنَّ البندين 3 و4 مُضِرَّان بالمسلمين ومُهيِّنَان لهم، كما تذرَّموا من إصرار سهيل بن عمرو على رفض النَّصِّ النَّبَوِيِّ، ذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دعا عليًّا عليه السلام ليكتب نصَّ الاتفاقية فأملَى عليه "بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم"، فقال سهيل: "لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم"، فكتبها، ثمَّ قال: "اكتب هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله سهيلَ بنَ عمرو"، فقال سهيل: "لو شهدت أنَّك رسولُ الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك"، فقال رسول الله ﷺ: "اكتب هذا ما صالح عليه محمدٌ بن عبد الله سهيلَ بن عمرو" (36)، فرفض عليُّ محو اسم رسول الله، فأمره النَّبِيُّ ﷺ أن يُريه مكانها فَمَحَاهَا، وقال: «إني رسول الله وإن كذبتُموني» (37)، ولقد ازداد تذمُّرهم عندما وصل أبو جندل بن سهيل مُفاوض النَّبِيَّ ﷺ مُقيِّداً، ورمى نفسه وسط المسلمين، ولكنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَدَّه إلى قُريش استجابةً لإصرار أبيه سهيل بن عمرو، ولكنَّه قال له: «اصبر واحتسب، فإنَّ الله جاعلٌ لك ولِمَن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله وإنَّا لا نغدر بهم» (38).

ولكنَّه إذا كان النَّبِيُّ ﷺ قد ردَّ أبا جندلٍ إلى المشركين فإنَّه رفض ردَّ النِّساء المؤمنات اللَّائِي تذرعن أوليائهنَّ بالبند الرَّابع من المعاهدة، وبرَّر ذلك بأنَّ نصَّ المعاهدة

ينص: "وعلى أن لا يأتيك منّا رجل" فالنساء إذن غير داخلات في العقد رأساً، وأنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ (39)، وهكذا نجد النبي ﷺ يدقق في نص الاتفاقية، ويُفسرها وفقاً لما تتطلبه نصوصها.

• التحلل من العمرة:

لما تمت المعاهدة أمر الرسول ﷺ أصحابه بالنحر، ولكنهم لم يقوموا فدخل على أم سلمة، فأشارت عليه ﷺ بأن يخرج ولا يكلم أحداً حتى ينحروا ويدعوا حالقه فيحلق، ففعل، فلما رأى الصحابة ذلك اقتدوا به (40)، وفي السنة الموالية أدّوا عمرتهم.

• موقف القرآن الكريم:

بيّن القرآن الكريم بأن الحديبية فتح مبين للمسلمين، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيُخَفِّرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (41)، وقد نزلت هذه السورة على النبي ﷺ بعدما نحر هديه وأحصر رجوع، ثبّين ما كان من أمر النبي ﷺ وأمر صحابته، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل إليه الأمر، وقد بيّن ابن مسعود وغيره هذه الحقيقة، فقال: «إنكم تعدّون الفتح فتح مكة، ونحن نعدّ الفتح صلح الحديبية، وهو ما بيّنه البخاري في صحيحه» (42).

وقد بيّنت آيات هذه السورة هذه الحقيقة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُثْبِتْهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (43).

فالفتح القريب هو: «هذا الصلح بطروفيه التي جعلت منه فتحاً، وجعلته بدء فتوح كثيرة، قد يكون فتحٌ خبير واحداً منها، وهو الفتح الذي يذكره أغلب المفسرين على أنه هو الفتح القريب الذي جعله الله للمسلمين» (44).

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ هذه بُشْرَى للمسلمين وقد رأوا بعد الحديبية هذه المغانم الكثيرة مصداقاً لهذا الوعد الإلهي، وقد عَجَّلَ لهم هذه، أي صلح الحديبية ليؤكد القرآن الكريم أن صلح الحديبية فتحٌ ومَغْنَمٌ وهو في حقيقته كذلك (45)، وقد بيّن أن هذا الصلح الذي كرهوه سيكون لهم آية من الله يَرَوْنَ فيها عواقب تدبير الله لهم، وجزاء طاعتهم للرَّسُول ﷺ مما يُثَبِّت في نفوسهم أنها شيءٌ عظيم (46).

والقرآن الكريم يُبَيِّن حقيقةً مهمّةً جداً تُؤَكِّدُ أن ما فعله النَّبِيُّ ﷺ كان وحياً، وهو الأصوب، وليس خُذْلَاناً ولا تنازلاً، هذه الحقيقة تتمثل في أنه لو وقفت الحرب لهُزِمَ الكُفَّارُ هزيمة منكرة. والسُرُّ في منع الحرب أن هناك كثيراً من المسلمين والمسلمات المستضعفين في مكة كانت ستدوسهم الأرجل (47)، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّ عَنْكُمُ الْكُفْرَانُ وَلَئِنَّكُمْ لَفِي غَافِلَاتٍ﴾ (48).

ولقد بيّن القرآن الكريم بعد ذلك أن ما فعله النَّبِيُّ ﷺ إنما كان بوحى، وهو الأصوب والأنسب، قال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ يَلْمُوهَا﴾، وقد بيّن الجلالان في تفسيرهما ﴿فَعَلِمَ﴾ في الصُّلح، ﴿مَا لَمْ يَلْمُوهَا﴾ من الصُّلَاح، ﴿فَعَجَّلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾، أي الدُّخُولُ ﴿فَتَحَافَرِيبًا﴾ (49)، هو فتح خيبر، وتحققت الرؤيا في العام المقبل (50) بأداء العمرة. وقد لُحِصَ لنا مُحَمَّدٌ أَبُو زَهْرَةَ عناصر هذا الفتح في بُنُودٍ منها:

- إنهاء القتال بين المسلمين وقُرَيْشٍ، وهذا في حدِّ ذاته فتحٌ.

- فَتَحَ قُلُوبًا إِلَى الْإِسْلَامِ فاعتنقته بعد أن كانت عليها غشاوة، وهو ما يظهر في تضاعف عدد المسلمين.

- كانت تمهيداً لدُخُولِ مَكَّةِ الْمُكَرَّمَةِ بالفتح الأعظم دون قتالٍ، واعتناق جميع المُكَيِّينَ الْإِسْلَامَ.

- طَهَّرَت الجماعة الإسلامية من المرضَى قلوبُهُمْ، ولذلك فإنَّ أهل الحديبيَّة وحدهم الذين سُمِّح لهم بالذهاب إلى خيبر.

- كانت الحديبيَّة طريقاً لاتَّجاه النَّبيِّ ﷺ إلى اليهود والانفراد بهم، فأراح المسلمين بذلك من مكرهم ودسائسهم وغدرهم، ثمَّ الاتَّجاه إلى الرُّوم كما قال تعالى: ﴿سَدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَتِّلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ (51) وأولئك هم الرُّوم، والدُّخول إلى أرض الشَّام، وهكذا فبالحديبية تمكَّن الرَّسول ﷺ من إزالة نفوذ اليهود كلياً واتَّجه إلى خارج الجزيرة العربيَّة لنشر الإسلام (52).

هذا ما يتعلَّق بمسلسل الأحداث، وموقف الصَّحابة من بنود الصُّلح، وموقف القرآن الكريم، وهنا نشير إلى أبعاد هذا الصُّلح الحضاريَّة السِّياسيَّة، وهو ما يتمثَّل في نتائج هذا الصُّلح.

ثانياً: تحليل نتائج الحديبيَّة:

عندما نُحلِّل صُلح الحديبيَّة بجميع مراحلها، من المفاوضات إلى بُنود الصُّلح، نجد أنَّ هذه الاتِّفافيَّة أو المعاهدة:

- توفَّرت فيها كلُّ شروط المعاهدات والاتِّفافيَّات التي تُعقد بين الدُّول الحديثة، ابتداءً من المفاوضات غير المباشرة بواسطة المبعوثين الرَّسميِّين إلى الحُضُور الرَّسميِّ لعقد الاتِّفافيَّة وتوقيعها، والاتِّفاق على البُّنود وكتابتها وتوقيعها، وحُضُور الشُّهود من الطَّرفين، ولم يكن هذا معهوداً لا عند العرب، ولا عند غيرهم من الأمم آنذاك.

- هذه الاتِّفافيَّة بغضِّ النَّظر عن بُنودها، فإنَّها حقَّقت هدفاً مهمَّاً جداً يتمثَّل في اكتمال أركان الدَّولة الإسلاميَّة - وهذا بُعدٌ حضاريٌّ سياسيٌّ مهمٌّ جداً -، ذلك أنَّ الدَّولة لها أركان جوهرية متَّفَق عليها، هي: 1 - الشَّعب، 2 - الإقليم، 3 - هيئة حاكمة ذات سلطة على الجماعة (53)، وهو ما يُسمَّى اختصاراً بالسلطة. هذه الأركان الجوهرية الثلاثة كانت مُتوفِّرة في دولة النَّبيِّ ﷺ، ولكنَّ القانون الدَّولي العامَّ لا يكتفي كما يقول محمَّد كامل ليلة بتوافر الأركان الماديَّة السَّابقة، وإنَّما يتطلَّب فوق ما تقدَّم: ضرورة الاعتراف بالدَّولة من جانب الدَّول

الأخرى القائمة، هذا الاعتراف إجراء قانوني مقتضاه: التسليم بنشوء دولة جديدة وقبولها عضوا في المجتمع الدولي.

ونلاحظ بأن هذا الاعتراف لا ينشئ الدولة من العدم، وإنما يُقرّر وجودها.

فإذا ما توفّرت أركان الدولة وجب على الدول الأخرى الاعتراف بها، بحيث يعتبر الامتناع عن ذلك الاعتراف عملاً عدائياً ضد الدولة الجديدة (54).

ولكن الواقع الدولي الحالي يعتبر الاعتراف ذا أثر منشئ، فيه تكتمل أركانها وتنشأ شخصيتها المعنوية (55) (56). وبهذه الاتفاقية أو معاهدة الصلح اكتمل الركن الرابع لدولة الرسول ﷺ، لأن توقيع هذه المعاهدة وما تضمنته بنودها يعني صراحة اعتراف قريش بدولة الرسول ﷺ، وأنها عقدت مع هذه الدولة معاهدة سلمٍ طويل الأمد، واعتراف قريش يعني بدهاء اعتراف القبائل الأخرى بهذه الدولة، ولا سيما أنها نصّت على أن من أراد الانضمام إلى قريش فله ذلك، ومن أراد الانضمام إلى دولة النبي ﷺ فله ذلك، وقد انضمت قبائل إلى قريش وأخرى إلى محمد ﷺ، وهكذا فإن اعتراف قريش يعني اعتراف جميع العرب، وارتفاع هيبة المسلمين وسط الجميع، لأن الذين تعقد معهم قريش معاهدة سلم لمدة 10 سنوات كاملة، أي طويلة الأمد - وهذا لم يكن معهوداً عند العرب - فهذا يعني أن المسلمين أصبحوا قوة يحسب لها ألف حساب، كما أن مكان عقد المعاهدة له دلالاته، فهو قرب مكة وليس قرب المدينة، وهذا يعني أن قريشاً هي التي جُبّت، وأنها أضعف من جيش محمد ﷺ، وأنها هي المغرورة، وإلا فلا يُعقل أن تُهاجم المسلمين في أحد، وفي المدينة نفسها في غزوة الأحزاب، ولكنها لا تُحرّك ساكناً والمسلمون قرب مكة بمرحلة واحدة.

ولذلك فإنه بعد هذه الاتفاقية مباشرة - وهو ما يدل على تكامل أركان هذه الدولة - خرجت الدعوة الإسلامية من المستوى العربي إلى المستوى الدولي، ويتمثل هذا في مُراسلة النبي ﷺ للملوك والأمراء، ودعوتهم إلى الإسلام، وجعلهم تابعين له، ونذكر من هذه المراسلات:

- رسالة النبي ﷺ إلى هرقل إمبراطور الروم.

- رسالة النبي ﷺ إلى كسرى أبرويز إمبراطور الفرس.

- رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس ملك مصر.

- رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة.

- رسالة النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوي صاحب البحرين (هي التي تُسمى الآن الإحساء) فأسلم.

- رسالة النبي ﷺ إلى جيفر بن الجلندا، وعبد بن الجلندا الأزديين صاحبي عمان فأسلما.

- رسالة النبي ﷺ إلى هوزة بن علي صاحب اليمامة.

- رسالة النبي ﷺ إلى الحارث بن شهر الغساني (57).

ولقد أدرك أولئك القياصرة والملوك خطورة الموقف بالنسبة إلى سُلطانهم، فبدل أن يعترف كبارهم (هرقل وكسرى) بالإسلام، أو على الأقل بالدولة ومُسلمتها قرراً حُرَّيها، وهو ما جعل هرقل يجهز جيشاً عرمرماً قوامه 100 ألف، يُضاف إليه جمعٌ كبيرٌ من قبائل العرب، وقد التقى الجيشان في مؤتة (58) وغزوتها معروفة، وهو ما يعني مواجهة الروم مباشرة، وكان لهذه الغزوة أثرها الطيب عند القبائل العربيَّة، وذلك بسبب عظمة الروم.

- ومن نتائج هذه الغزوة التي هي من نتائج الحديبية زيادة هيبة المسلمين وسط العرب والفرس والروم على السواء، ذلك أن العرب تعوّدوا على العمالة للروم أو الفُرس، ولم يتعوّدوا على الوقوف في وجه جبروتهم وطغيانهم، فلمَّا وقعت مؤتة ولم ينهزم المسلمون أمام أكثر من 100 ألف، أصبح يُنظر إليهم بالاحترام والهيبة.

- غزوة خيبر بأصحاب الحديبية دون سواهم، وقد حققت نتائج باهرة، ذلك أن أعداء الإسلام في شبه الجزيرة العربيَّة كانوا ثلاثة أطراف، هي:

- قريش.

- غطفان.

- اليهود.

فلما وقع الصلح بين قريش والمسلمين بقيت غطفان واليهود، فلما كُسِرَ اليهود في خيبر عزلت غطفان، وكُسِرَت شوكة المنافقين في المدينة، وهذا من أهم آثار هذه الغزوة الدأخلية، إضافة إلى الجانب المادّي حيث حلّت مشكلات المسلمين الاقتصادية.

- قضية الشورى والديمقراطية:

لقد نزل الرسول ﷺ على رأي أصحابه فيما يتعلّق باختيار الرسول المبعوث لمفاوضة قريش، كما نزل على رأي أمّ سلمة عندما أشارت عليه بالنّحر والحلق ليقنّدي به أصحابه، وذلك «لأنّ الحقّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ، ولأنّ الحقّ واجب الاتّباع في ذاته، بغضّ النّظر عن صاحبه» (59).

ولكنّه ﷺ لم ينزل عند رأيهم فيما يتعلّق ببُئود اتّفاقية الصلح. وهنّا يطرح التساؤل الآتي: هل الشورى مُلزمة للحاكم؟ وإذا كان ذلك كذلك، فما مدى إلزاميّتها أم أنّها مجرد استشارة، الحاكم مخير في الأخذ بها أو ردّها؟

لقد اختلف المفكّرون المسلمون حيال هذه القضية، فهناك من يرى استنادا إلى ما وقع في الحديبية بعدم إلزاميّتها (60) رَغْمَ اتّفاق الجميع على وجوبها (61)، وهناك من يرى بأنّ النصوص تُوجب أن يستشير الإمام الرعيّة في إدارة شؤونهم (62)، وهناك من يربط بين وجوب الشورى وإلزاميّتها، ويرى بأنّ «واجب تقديم الرأى والنّصح المؤسّس على قيمة الشورى باعتباره مَبْدَأً مُلْزِماً يضبط الممارسة السّياسيّة وخاصّة فيما يتعلّق بصنع القرار» (63).

والنتيجة التي نتوصّل إليها من مناقشة الموقّفين السّابقين أنّ الحاكم مُلْزَمٌ شرعا بالشورى، وملزَمٌ باتّباع الرأى الذي يُشار به عليه، وهذا الموقف مُستتبَط من نصوص القرآن والسنة، وسيرة الرسول ﷺ والخلفاء الرّاشدين إلّا في الحالات النّادرة عندما يوجد سبب هامٌّ يؤيّد موقف الخليفة المستقلّ، ومن ذلك موقف أبي بكر رضي الله عنه من المرتدّين، ويلخّص لنا السّنهويّ هذا الموقف بقوله: «إنّ الأصل هو أن يكون الخليفة ملزّما باتّباع النّصح الموجّه من المسلمين إلّا إذا كان لديه

سبب خطير يدعو لمخالفته، والخليفة هو الذي يقرر ما إذا كان هناك سبب يدعو لتيّخذ قراراً، يتحمّل وحده المسؤولية عنه مخالفاً النصّ الموجّه له» (64)، ويكفي دلالة على إلزاميّتها أنّ الرّسول ﷺ كان ينزل عند رأي أصحابه ما لم يكن موقفه ناتجاً عن وحي، كما هي الحال في قبول بنود صلح الحديبية، وقد أشرنا إلى موقف القرآن الكريم من ذلك.

أمّا قضية الديمقراطية فإنّ الفرقَ بينها وبين الشورى أنّ الشورى لا تكون فيما ورد فيه نصّ، بينما الديمقراطية لا تفرّق بين نصّ وغيره، كما أنّه وفقاً للشورى لا يمكن للأمة أن تُحلّ حلالاً أو تُحرّم حراماً حتّى لو قرّرت ذلك بالإجماع، فيبقى الحرام حراماً، والحلال حلالاً عكس النظام الديمقراطيّ.

• مكانة المرأة:

من خلال إشارة أمّنا أمّ سلمة رضي الله عنها على النّبي ﷺ ونزوله عند رأيها في قضية خطيرة كهذه يدلّ على مكانة المرأة في الإسلام، وعلى حقّها السياسيّ الذي لا يقلّ عن حقّ الرّجل، وأنّ قيمة الإنسان بسداد رأيه لا بجنسِهِ.

• من خلال سهيل بن عمرو وابنه:

ندرك كيف هدم الإسلام الولاء للقبيلة والعرق والجنس لصالح الفكرة، فجعل مُعتقي الإسلام كلّهم كتلة واحدة مهمّاً كانت قبائلهم وألوانهم وأجناسهم، وجعل ولاهم لله ورسوله على حساب - حتّى - آبائهم وأقرب النّاس إليهم، وهكذا أقام الإسلام أمةً ربطها بعالم الأفكار فارتفع المستوى العقليّ للعرب، وتغيّرت قيمة الأشياء والأخلاق في نظرهم (65)، وصاروا أمةً من دون النّاس.

• حرص النّبي ﷺ الشّديد على السّلم:

إلى حدّ القبول بشروط اعتبرها بعض الصّحابة تنازلاً، وهو ما يبيّن أنّه رحمة مهداة للعالمين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) ﴿(66)﴾.

توقيع هذه المعاهدة أفقد قريشا سطوتها وزعامتها وسط القبائل:

وأصبح المسلمون يُنظر إليهم نظرة أخرى فَسَهَّلَ هذا دُخُولُ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ، ذلك أنه قبل الحديبية كان المسلمون والكُفَّارُ فِي حَرْبٍ مُسْتَمِرَّةٍ، فَلَمَّا وَقَعَ صُلْحُ الْحَدِيبَةِ آمَنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَاخْتَلَطَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمُشْرِكِينَ يَدْعُوْنَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَعَرَفُوا الْإِسْلَامَ مِنْ مَصْدَرِهِ، وَجَاءَ الْكُفَّارُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَذَهَبَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَكَّةَ، وَاخْتَلَطُوا بِأَصْدِقَائِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَغَيْرِهِمْ، لِأَنَّ إِرْهَابَ قَرِيْشٍ لَمْ يَعُدَّ قَائِمًا (67)، كَمَا انْتَشَرَ الصَّحَابَةُ خَارِجَ مَكَّةَ وَأَسْمَعُوا النَّاسَ أَحْوَالَ النَّبِيِّ ﷺ وَمُعْجَزَاتِهِ وَأَخْلَاقَهُ وَنُبُوَّتَهُ فَمَالَتْ أَنْفُسُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَاعْتَقَ الْإِسْلَامَ كَثِيرُونَ، وَازْدَادَ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ مِيلًا إِلَيْهِ، وَمِنْ الَّذِينَ أَسْلَمُوا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَلَمَّا جَاءَ فَتْحُ مَكَّةَ أَسْلَمَ الْقُرَشِيُّونَ جَمِيعًا لِمَا تَمَّ لَهُمْ مِنَ الْمِيلِ قَبْلًا، فَتَضَاعَفَ نَتِيجَةُ لِهَذَا الصُّلْحِ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ خِلَالِ عَامَيْنِ مِنْ 1400 إِلَى 10 آلاف (68). وَهَكَذَا يَتَبَيَّنُ بَجَلَاءٍ أَنَّ الْكُفْرَ تَضَعُفَهُ الْإِيَّامُ، وَالْإِيمَانَ تَزِيدُهُ الْإِيَّامُ قُوَّةً إِذَا كَانَ لَهُ أَنْصَارٌ أَقْوِيَاءُ (69).

بنود الاتفاقية ورقة في يد النبي ﷺ:

أصبحت بنود هذه الاتفاقية ورقة في يد النبي ﷺ يُحَقِّقُ بِهَا مَا يُرِيدُ، فَهُوَ يَرْضَى عِنْدَمَا تَطْلُبُ مِنْهُ قَرِيْشٌ أَنْ يَخْرُقَ أَحَدَ بَنُودِهَا، وَهُوَ مِنَ الْبَنُودِ الَّتِي ثَارَتْ حَوْلَهَا زُبُودَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَهُوَ الْبَنْدُ الْمُتَعَلِّقُ بِعَدَمِ رَدِّ الْكُفَّارِ الْمُسْلِمِ الْمُرْتَدِّ، وَرَدُّ الْمُسْلِمِينَ الْمُسْلِمِ الَّذِي اعْتَقَ الْإِسْلَامَ. لَقَدْ كَانَ هَذَا الشَّرْطُ شَاقًّا فِي ذَاتِهِ، لَا سِيَّمَا بَعْدَ أَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبُو جَنْدَلٍ مُقَيَّدًا، وَلَكِنْ تَطْبِيقُهُ أَدَّى إِلَى ضَرْرٍ بِالْمُشْرِكِينَ لَا بِالْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ هُمُ الَّذِينَ طَلَبُوا إلْغَاءَ هَذَا الْبَنْدِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَا فَعَلَهُ أَبُو بَصِيرٍ عَتَبَةُ بْنُ أَسِيدٍ وَمَنْ لَحِقَ بِهِ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ وَقَطَعَ الطَّرِيقَ عَلَى قَوَافِلِ قَرِيْشٍ (70)، إِضَافَةً لِمَا سَبَقَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْبَنْدِ، فَإِنَّهُ عِنْدَمَا يُحْلَلُ تَحْلِيلًا مَنْطِقِيًّا نَجَدَهُ لَمْ يَضُرَّ بِالْمُسْلِمِينَ، بَلْ هُوَ تَطْهِيرٌ لِعَنَاصِرِهِمْ، إِذْ مَا الْفَائِدَةُ مِنَ الْإِحْتِفَازِ بِمُرْتَدِّ عَنِ الْإِسْلَامِ؟ كَمَا أَنَّ الَّذِي أَطْمَأَنَّ قَلْبُهُ إِلَى الْإِيمَانِ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ تَنْيِيهِ عَنْهُ، وَقَدْ تَرْتَّبَتْ عَنْ هَذَا الْبَنْدِ أَنْ انْحَلَّتْ مُشْكَلَةُ الْمُسْتَضْعِفِينَ فَلَحَقُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُمْ بِاللَّحَاقِ بِهِ (71).

لقد قلنا بأن بُود هذه الاتفاقية صارت ورقة رابحة في يد النبي ﷺ فهو يرضى بخرق بند عدم رد الكافر ورد المسلم، ولكنه يجعل خرق قريش لبند آخر وسيلة للتحرر من الاتفاقية أو المعاهدة . وهو البند المتعلق بعدم الاعتداء لمدة 10 سنوات . رغم اعتذار قريش الرسمي وسعيها لتجديد بند السلم وهو سعي يدل على خوفها من النبي ﷺ، وإلا فهي التي كانت تتبَّعه وأصحابه، ولكن النبي ﷺ لا يرضى ويجعل هذا الخرق السبب المباشر لفتح مكة المكرمة.

استغلال النبي ﷺ هذه الفكرة من السلم للاتصال بصناديد قريش الذين يُرجى إسلامهم:

وذلك بواسطة المراسلات، وكان لهذا ثمره، ومن هؤلاء خالد بن الوليد الذي راسله أخوه الوليد بن الوليد، ومما قاله له: «أما بعد، فإنني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام... قد سألني رسول الله ﷺ عنك، فقال: أين خالد، فقلت: يأتي الله تعالى به، فقال: ما مثله جهل الإسلام. ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين كان خيرا له، ولقد مناه على غيره. فاستدرك يا أخي ما قد فاتك، وقد فاتك مواطن صالحة» (72)، وقد أتى هذا الاتصال أكله.

- إضافة لما سبق، فقد نتج عن صلح الحديبية ما يأتي:

- توسيع الدولة وانتشارها.

- زيادة عدد المسلمين باستمرار.

- زيادة القوة الفكرية والعسكرية للدولة الإسلامية.

- انتشار العامل الأخلاقي، واتجاه الناس نحو التمدن بدل حياة البداوة، ويظهر هذا جلياً من خلال زيادة عدد سكان المدينة بالوافدين الجدد، وهي زيادة تتناقض مع ما نلاحظه في مختلف المجتمعات عبر العصور عندما تقع هجرة من الريف إلى المدينة، ذلك أنه يُصاحب هذه الهجرة التأثير السلبي للمدينة بحيث تظهر آفات اجتماعية لم تكن موجودة، فينتج عن ذلك التفكك الأسري، وتريف المدينة، والبطالة، وانتشار الرذيلة.

ولكنَّ مُجتمع المدينة كان عكس هذا تماماً، فكان البدو يأتون إلى المدينة لتتهدَّب طباعهم، وتستقيم أخلاقهم فيندفعون إلى البناء الحضاري، والتَّمسُّك الكليِّ بكلِّ تعاليم الإسلام فأنَّج ذلك مجتمع المدينة المنورة الذي يُعدُّ أكبر تَجْمُع في التَّاريخ البشريِّ كلُّه أقام حياته على الدِّين الصَّحيح وصفاء القلوب ونقاء السَّريرة، والإيثار وغير ذلك من قيم الإسلام المختلفة.

.فتح مكة:

وهو نتيجة مباشرة لصلح الحديبية، ونُشير في هذا الفتح إلى رحمة الرُّسول ﷺ العظيمة بإصدار العفو الشَّامل حتَّى على كبار مُجرمي الحرب، ومن هؤلاء الَّذِينَ عفا عنهم هُنْدُ الَّتِي تَجَرَّدَتْ عن كُلِّ صفات الإنسانِيَّة فأكلت كَبِدَ عمِّه وصديقه سيِّدنا حمزة رضي الله عنه، فأحرى بنا أن نفتدي بالرُّسول ﷺ في حياتنا السِّياسِيَّة والاجتماعِيَّة.

.الخاتمة:

بعد هذه الرُّحلة الشَّيْخَة في رحاب الحديبية ابتداءً من منام رسول الله ﷺ بدخول البيت العتيق آمناً هو وأصحابه مُحلِّقِينَ رؤوسهم ومُقَصِّرِينَ إلى الاتِّجَاه إلى البيت، وما نتج عنه من صدِّ قريش لهم، وتوقيع معاهدة الصُّلح تُبيِّن لنا أنَّ هذه المعاهدة كانت نصراً مبيناً للمسلمين، وقد سَمَّاهَا اللهُ ﷻ فَتْحاً مُبِيناً، وقد حلَّت للمسلمين مشكلتين كبيرتين، هما: المشكلة الأُمْنِيَّة، فترتَّب عن ذلك فَتْحُ مجال الدَّعوة على مصراعيه، فدخل النَّاس في دين الله أفواجا، فانتصرت بذلك الفضيلة على الرَّذيلة.

ومشكلة الفقر: وذلك بما غَنِمه المسلمون من خيبر، فحلَّت بذلك المشكلة الاقتصادية. كما أنَّه ترتَّب عنها خروجُ الدَّعوة إلى النُّطاق العالميِّ، ومُقارعة كبار الطُّغاة كالروم والفرس، ونتج عن ذلك الفُتُوحات الإسلاميَّة، ونشأة حضارة جديدة تعتني بالفرد والمجتمع على السَّواء تُقُوم على المساواة بين الأجناس والألوان، وتتَّخذ الفضيلة سَبِيلَها هي الحضارة الإسلاميَّة الَّتِي نَفخر بالانتماء إليها.

والله وليُّ التَّوفيق.

- (1) الحديبية بئر في قرية سميت هذه الغزوة باسمها تبعد عن مكة المكرمة بمرحلة (مسيرة يوم بالابل أي نحو 30 كلم)، وتبعدُ عن المدينة بتسع مراحل (محمّد الخضري بك، نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين محمد ﷺ، دط، دار كرم للطباعة والنشر، دمشق، دت، هامش ص74).
- (2) المرجع نفسه، ص174.
- (3) أبو الحسن النّدوي، السيرة النبويّة، ط5، دار الشروق، جدّة، 1983م، ص234.
- (4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، د ط، دار الفكر، د م ن، د ت، ج4، ص183.
- (5) ابن هشام، السيرة النبويّة، تحقيق: مصطفى السّقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط2، البابي، مصر، 1955م، م2، ص308.
- (6) أبو الحسن النّدوي، المرجع السّابق، ص34.
- (7) اختلفت الروايات في عدد أصحاب الحديبية بين 1400 صحابيٍّ و1500 صحابيٍّ، والرّاجح أنّهم 1400 فارسيٍّ وراحل؛ وهو قول البراء بن عازب، ومعقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع في أصحّ الروايتين في الصّحّاحين، وهو ما اطمأنّ إليه ابن القيم (ابن القيم الجوزيّة، زاد المعاد في هدي خير العباد، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، م1، ص122).
- (8) صفّي الرّحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتّوزيع، بيروت، 2003، ص240.
- (9) ابن هشام، المصدر السابق، ص308.
- (10) محمّد سعيد رمضان البوطي، فقه السيّرة، دط، دا الشّهاب، باتنة، الجزائر، 1985، ص315.
- (11) صفّي الرّحمن المباركفوري، المرجع السّابق، ص241.
- (12) محمّد الخضري بك، المرجع السّابق، ص175.

- (13) صفِيُّ الرَّحْمَنِ المَبَارَكْفُورِي، المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص241.
- (14) ابن هشام، المَصْدَرُ السَّابِقُ، ص311.
- (15) المَصْدَرُ نَفْسَهُ، ص315.
- (16) عِيبة نَصَحَ الرَّسُولُ؛ أَي: خَاصَّتَهُ وَأَصْحَابَ سِرِّهِ، ابن هشام، المَصْدَرُ السَّابِقُ، هَامِشُ ص312.
- (17) المَصْدَرُ نَفْسَهُ، ص310.
- (18) صفِيُّ الرَّحْمَنِ المَبَارَكْفُورِي، المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص241.
- (19) ابن هشام، المَصْدَرُ السَّابِقُ، ص311.
- (20) ابن هشام، المَصْدَرُ السَّابِقُ، ص314.
- (21) مُحَمَّدُ الْخَضْرِي بَك، نور اليقين، ص 176.
- (22) ابن هشام، المَصْدَرُ السَّابِقُ، ص314.
- (23) الْفَتْحُ / 24.
- (24) ابن هشام، المَصْدَرُ السَّابِقُ، ص314.
- (25) المَصْدَرُ نَفْسَهُ، ص315.
- (26) صفِيُّ الرَّحْمَنِ المَبَارَكْفُورِي، الرَّحِيقُ الْمَخْتُومُ، ص243.
- (27) المَرْجِعُ نَفْسَهُ، ص243.
- (28) الْفَتْحُ / 18.
- (29) مُحَمَّدُ الْخَضْرِي بَك، نور اليقين، ص 177.
- (30) مُحَمَّدٌ رَشِيدٌ رِضَا، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، دَط، الْبَابِي الْحَلْبِي، الْقَاهِرَة، دت، ص257.
- (31) مُحَمَّدُ الْخَضْرِي بَك، نور اليقين، ص 177.
- (32) ابن هشام، المَصْدَرُ السَّابِقُ، ص317 و318.
- (33) مُحَمَّدٌ حَمِيدُ اللَّهِ، مَجْمُوعَةُ الْوُثَائِقِ السِّيَاسِيَّةِ لِلْعَهْدِ النَّبَوِيِّ وَالْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، ط5، دَارُ النَّفَاسِ، بِيْرُوت، 1985، ص 77 و78.

- (34) ابن هشام، السيرة النبوية، م2، ص319.
- (35) محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص259.
- (36) ابن هشام، السيرة النبوية، م2، ص317.
- (37) صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ص244.
- (38) ابن هشام، المصدر السابق، ص318.
- (39) صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ص245.
- (40) المرجع نفسه، ص244.
- (41) الفتح / 1.
- (42) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص182.
- (43) الفتح / 18 - 20.
- (44) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط12، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1986، م6، ص3326.
- (45) المرجع نفسه، ص3326، 3327.
- (46) المرجع نفسه، ص3327.
- (47) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط4، دار القرآن الكريم، بيروت، 1981، م3، ص225.
- (48) الفتح/25.
- (49) الفتح/.
- (50) الجلالان، تفسير الجلالين، دط، المطبعة الكبرى، القاهرة، 1293هـ، ص137.
- (51) الفتح / 16.
- (52) محمد أبو زهرة، خاتم النبئين، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، م2، ص260، 862.
- (53) محمد كامل ليلة، النظم السياسية: الدولة والحكومة، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، 1971م، ص22.

- (54) المرجع نفسه، ص 33، 34.
- (55) سعيد بوالشَّعير، القانون الدُّستوريُّ والنُّظم السِّياسِيَّةُ المقارنة، ط5، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ص92.
- (56) وهناك من يضيف ركنا خامسا للدولة، هو السَّيادة؛ أي: القوَّة العليا للدولة، ولها جانبان، داخليٌّ، ويتمثَّل في سُلْطتها على الأفراد والهيئات في حُدودها الجغرافيَّة، وخارجيٌّ، ويتمثَّل في التَّمَتُّع بالاستقلال السِّياسيِّ؛ أي: عدم تبعيَّتها في اتِّخاذ قراراتها الخارجِيَّة لأيِّ وحدة سياسيَّة أُخرى، وهذا مُتَحَقِّق في دولة الرُّسول ﷺ. (علي عبد المعطي محمَّد، ومحمَّد علي محمَّد، السِّياسة بين النُّظريَّة والتَّطبيق، دط، دار الجامعات المصريَّة، الإسكندريَّة، 1976، ص 302، 303.
- (57) أبو الحسن النَّدوي، السيرة النَّبويَّة، ص 244 - 245.
- (58) المرجع نفسه، ص 278.
- (59) محمَّد أبو زهرة، المرجع السَّابق، ص 859.
- (60) محمَّد سعيد رمضان البوطي، المرجع السَّابق، ص 324.
- (61) عبد الوهاب خلاَّف، السِّياسة الشَّرعية أو نظام الدَّولة الإسلاميَّة في الشُّنُون الدُّستوريَّة والخارجِيَّة والماليَّة، ط6، مؤسَّسة الرُّسالة، بيروت، 1997م، ص 30.
- (62) محمَّد أبو زهرة، المرجع السَّابق، ص 858.
- (63) فوزي خليل، دور أهل الحلِّ والعقد في التَّموذج الإسلاميِّ لنظام الحكم، ط1، المعهد العالميُّ للفكر الإسلاميِّ، القاهرة، 1996م، ص 417.
- (64) عبد الرزَّاق السَّنهوري، فقه الخلافة وتطوُّرها لتصبح عصبة أمم شرقيَّة، ط1، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، 2001، ص 193، 194.
- (65) أحمد أمين، فجر الإسلام، ط11، مكتبة النَّهضة المصريَّة، القاهرة، 1975م، ص 74، 75.
- (66) الحج الآيَة 107.
- (67) محمَّد الغزالي، محاضرات في السِّيرة النَّبويَّة (ألقيت بجامعة الأمير عبد القادر 1985م).
- (68) محمَّد رضا، المرجع السَّابق، ص 259.

- (69) محمد الغزالي، المرجع السابق.
- (70) محمد أبو زهرة، المرجع السابق. ص 863، 864.
- (71) المرجع نفسه، ص 865.
- (72) محمد حميد الله، المصدر السابق، ص 85 و86.